١

بسم الله

(نعمة الله بالرخاء أو نقمة)

الرخاء مثل الفقر (وأما ما مر أقدار الخالق) قد يكون نعمة وقد يكون نقمة، وابن آدم المخلوق عن ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن • وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن • كلا﴾. عرف لهذا سليمان عليه السلام عندما أعطاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده؛ فسخر الله له الريح تجري بأمره رخاء وعاصفة، وسخر له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، وعلمه منطق الطير، وآتاه من كل شيء، قال الله تعالى عنه: ﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾. وعد ابن القيم رحمه الله خروج آدم من الجنة (وهو عقاب من الله له على عصيان أمره)، متضمناً نعمة من الله عليه (استخلفه وأوبته إليه): لذة العودة الى الجنة بعد مكابدة الحرمان منها وكد الحياة على الأرض.

يكون الرخاء نعمة إذا استعان به الإنسان على طاعة الله، ولم يخرجه عن فطرة الله التي فطره عليها في الدين والدنيا. ويتحول الى نقمة إذا اشتغل به عن طاعة مولاه، فاستعمل الكسل عن السعي والعمل الصالح لدينه ودنياه بخدمة نفسه، وأهله، وأمته، ودينه، وطاعة ربه ومولاه الله أمره.

ومما يغلب على الكثرة أنه يكون مع الضلال: ﴿ولو تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾؛ يغلب على الغنى والترف أنه يقود الى الطغيان: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾، ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾، ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾.

وكثر من الشعوب الغنية في العالم (خلال المائة سنة الأخيرة) وقعت في حبائل الرخاء وعواقبه: فقد الحافز للعمل، الكسل، التخمة، ومخالف أمراضه كثرة الأكل ونعومة، وقلة الحركة (جسمية ونفسية، بدنية وذهنية).

وأبرز مثال حي على مقدمات الترف ونتائجه: جزيرة "ناورو" في المحيط الهادي. ولذلك رأيت تقديم ملخص (للعبرة) عن تقرير نشرته مجلة

"ريدرز دايجست" العالمية عدد مايو ١٩٩٧، يقارن بين ماضي الجزيرة وحاضرها ومستقبلها كما يتوقعها:

"ناورو" جزيرة من جزر المحيط الهادي في منتصف المسافة بين "هاواي" و"استراليا"، صغيرة المساحة، قليلة عدد السكان، اكتشفها (قبل قرنين) قائد سفينة إنكليزية لصيد الحيتان، وسماها: "الجزيرة الجميلة". كان رزقها يأتي رغداً، لاكتفائها بما حباها الله من نبات وثمار، وطيور وأسماك، وأيد عاملة. ومنذ مائة عام تبين أنها من أغنى المناطق في العالم بأجود أنواع الفوسفات.

حصلت على الاستقلال عام ١٩٦٨، وقررت تأميم الفوسفات. وفجأة اكتشف أهلها حياة الكسل والاستهلاك الداخلي، والاستيراد والاستقدام الخارجي؛ فوفد إلى الجزيرة ما يقرب من نصف عدد السكان من العمال والسائقين والخدم الأجانب يكفون الأهالي مؤونة الحركة.

وكغيرهم لم يكتفوا بذلك؛ فامتلأت المطابخ بأفران الميكروويف وأجهزة التبريد والتنظيف الأوتوماتيكية، وضاقت الغرف بأجهزة الراديو والتلفزيون والكمبيوتر الحديثة وآلات الرياضة الصناعية المهجورة، وضاقت ساحات المنازل بالسيارات، فتعطلت الأيدي عن العمل، والأرجل عن المشي، وتعطلت العقول عن الفكر المفيد في مستقبل الدنيا والآخرة، وتعطلت الهمم عن التنافس والتعاون في مجالات البر والتقوى والإحسان.

وتفشى نوع التفنن والتكاثر، وتفاقم هواجس الحركة، ظهرت أمراض الترف: ٩٠٪ من السكان يعانون من السمنة المفرطة، وازداد عدد مرضى القلب وضغط الدم مرتين، وعانى المواطنون من ثاني أعلى معدل لمرضى السكر في العالم: ٥٠٪ من هم فوق خمسين سنة، و٢٠٪ من هم بين ٢٥ و٥٠ سنة.

وبعد عشرين سنة من الصرف بلا حساب، والتنافس على الإسراف، بدأ دخل الفوسفات يتناقص وأوشكت النضة الذهبية على الفناء.

واليوم تواجه الجزيرة مستقبلاً موحشاً: دمرت عمليات استخراج الفوسفات أربعة أخماس مساحة الجزيرة، وهلكت الحياة الفطرية، وأسوأ من ذلك لم يتعود الأهالي على صالحية الأرض للأعمال المكتبية. فقل سيروا في الأرض فانظروا.

والحق أنه الإسراف في الاستهلاك معصية لله يشترك فيها الجميع: العالم والأمي، الكبير والصغير، الذكر والأنثى، والراعي والرئيس. وكذلك يشترك المجتمع الأمة رحم الله في السعي لاستجلاب المصلحة الخاصة على حساب المصلحة العامة، وتحول الإدارات الحكومية الى مؤسسات للضمان الاجتماعي، وتحول الجامعات ومعاهد التعليم المتخصصة إلى مفارخ لفقس الموظفين الذين يزيد عددهم عن الحاجة، وبالتالي يفوه الأداء الصالح للمسئولية القاصرة والعملية.

ومع أنه هذا الوصف ينطبق على معظم الجماعات (المجتمعات) غير الصناعية بخاصة؛ فإنه الإسراف (الذي لا يحبه الله) ليس من المنكرات في برامج الدعاة الى دين الله على بصيرة، وضمن محتسبي دورهم من المصلحين. بل إنه وسائل الإعلام الخاصة والعامة (وهي بيده ما يوصف بالإسلامية) تنافس الدول الصناعية المنتجة في الدعاية التجارية إلى الاستهلاك. بل يتفوه الصغير والكبير على أنه الدعاية التجارية في التلفزيون أقدر على اجتذاب بصر المشاهد وقلبه من بقية البرامج. ﴿زين للناس حب الشهوات﴾.

وللاقلاع عن معصية الله بالإسراف الذي لا يحبه، لابد للمسلم أن يحذر من الانشغال بحفظ كتاب ربه وتجويد تلاوته (فضلاً عن المعاصي والمباحات) عن تدبره وفقهه والعمل به؛ لكونه مرجعه الأول في كل أمور حياته، في كل زمانه ومكانه، وفي كل حال. قال الله تعالى: ﴿ولا تبذر تبذيراً • إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ وقال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾. ونستغفر الله ونتوب إليه فإنه أكثرنا أقرب إلى التبذير والإسراف (وبخاصة في المال العام) منا إلى العدل والإحسان. وأوضح دليل على ذلك: أنه أجد من انتخبهم دولة مسلمة على ثروة البلاد قام قبل عشرة عاماً على أبرز منابر الإعلام في البلاد يستحث الأمة على زيادة الإنفاق في مقابل زيادة الدخل، ولم يقف صوت واحد في إنكار هذا المنكر (الشرعي والعقلي)، بل تسابق الأغلبية من الناس حسب استطاعتهم في الاستجابة لدعوة الشر والتسفه والفساد. والأغلبية دائماً في جانب الضلال إلا أن يشاء الله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾، ﴿لا يعلمون﴾، ﴿لا يؤمنون﴾. وصلى الله وسلم على محمد وآله.